مشكلات الوضع الراهن للتنمية الريفية فى مصر

دراسة نقديـــة

دكتور محمـــد صلاح بسيونى (*)

مقدمـــــة :

ان تطوير الريف المصرى تطويرا جذريا شاملا ــ اجتماعيا ، واقتصاديا، وعمرانيا ــ لم يعد رفاهية فكرية أو شعارات سياسية . وانما أصبح واجبا مقدســـا ومطلبا حضاريا ونحن على اعتاب القرن الواحد والعشرين . أن مشجب « المعركة العســـكرية » الذى تراكمت فوقه كل مشكلات المجتمع المصرى قد توارى بعد اتفاقية السلام مع اسرائيل ، وهـــذه حقيقة يجب أن نستوعبها بشجاعة ونتيقظ لتحدياتها .

ومن ثم نصبح معركتنا ، هى المعركـــة ضد التخلف بكل صوره وألوانه والتى تتجســـد بشكل ملموس فى ريفنا العريض . وليكن معروفا دائمـــا أن جذور التنمية القومية تبدأ عادة من تربة الريف المصرى ، وعلية لابد أن تعاد ثمارها او جانب معقول منها لاخصـــاب حياة هـــذا الريف وأحداث نهضـــة حقيقية فى نظمه وقيمه وعلاقاته وانتاجه ، تتناسب طرديا مـــع معطيات العصر لكل من يسعى للاستفادة منها وتكييفها بما يتلائم مع ظروفه النوعية .

والبدايه دائما يتقدمها الحماس ، لكنه سرعان ما يفتر عند أول منعطف ويتلاشى مع أقرب تحد . وهذه للاسف كانت آفة التنميـــة فى دول لعـــالم الثالث ، فبعد المـــد الكبير لخطط وبرامج التنمية الطموحة فى الخمسينات والستينات بهذه البلدان ، احتواهـــا الانحسار فى السبعينات ، وشهدت هذه السنوات الأخيرة انتكاسات متتالية لكثير من تجارب التنمية فى هذه البلدان. وتبع ذلك صحـــوة ونشاط ظاهران للخبراء والباحثين لتقويم هـــذا التذبذب فى منحنيات التنمية ، وكان فى مقدمة أسباب هذه الاخفاقات انخراط غالبيـــة هـــذه الدول عشية استقلالها فى محاكاة الدول الغربية ، وتقليد نماذجها فى التنمية والتحديث Modernization ، وتورطها فى تبنى سياسات وأيديولوجيات ليست نابعة من داخلها او متمشية مـــع ظروفها الثقـــافية والاقتصـــادية .

---

* مدرس علم الاجتماع بكلية الآداب ــ جامعة عين شمس .

وبالطبع فاننا لا يمكن أن نعفى من هـذه المسئولية صفوة العسكريين ، والمثقفين بهذه البلاد المتخلفة الذين تأثرت طموحاتهم وبرامجهم بتراث الفكر التنموى العربى ؛ ونظرياته .

وقضية التنمية الريفية لم تنفصل عن هذا الاطار الاجتماعى والاقتصادى والسياسى المتغير الذى اتسم بالديناميكية والتفاعل المتصل بين مختلف التيارات والاتجاهات والعوامل فى هذه البلدان ، ومصر واحدة من طلائعها ، ولذلك كانت حركة التنمية الريفية تتوقف او تتعثر اذا اهتز هذا الاطار وانشغلت الدولة ببعض القضايا القومية الخارجية وما أكثرها . وهذا كانت التنمية الريفية — ومازالت متغيرا تابعا — وهذا المنظور التقليدى نحوها لابد أن يتغير .

وأما مسيرة التنمية الريفية فى مصر — وهى التى تعنيه فى هذا البحث — فقد كانت قريبة الشبه من هذا السياق العالمى ، ووجه الاختلاف الاساسى تمثل فى ذلك الايمان الراسخ بأن تنمية الريف المصرى هى المدخل الصحيح والفعال للتنمية القومية ، غير أن هذا الايمان لم يترجم الى استراتيجية طويلة النفس أو ايديولوجية واضحة المعالم . وعلى الرغم من أن « برنامج العمل الوطنى» كان قد بدأ فى صياغة هذه الاستراتيجية وتصورها خطة مبدئية الا ان القضايا القومية الملحة قد حالت دون تنفيذ ذلك حتى وقتنا الحالى .

وفى تصورى أنه لابد من وقفة تحليلية ناقدة لتجارب التنمية الريفية فى مصر على مدى ربع القرن المنصرم ، ووضع حصاد هذه التجارب للاستفادة به ونحن نتهيأ لمرحلة جديدة وحاسمة فى تاريخ مصر المعاصر . ولعل كشف مسببات مسيرتنا فى التنمية الريفية دون موارية هو بداية أساسية ومهمة مطروحة امام الجميع من باحثين وخبراء وسياسيين على السواء .

ولا أزعم أن هذه الدراسة تستطيع الاحاطة بكل ذلك ولكنها فقط محاولة تمهيد الطريق أمام تقويم الوضع الراهن للتنمية الريفية فى مصر ، والاشارة الى بعض سلبياتها ، وتصور بعض البدائل والمتطلبات اللازمة لانطلاقة فعالة ، وتحقيق نهضة شاملة للريف المصرى دون تأخير او ابطاء .

واود ان اوكد من جديد أن تنمية الريف سوف تتعثر — مهما خلصت النوايا — اذا لم نواجه مشكلاته المعقدة والمتشعبة بأساليب علمية واضحة المعالم ، ومالم نتيقن ان ذلك يحتاج الى تغيير وتطوير جذرى : من طرق الزراعة ، وتفتت الملكية ، وتجزؤ الحيازات ، وتخلف البنية الأساسية الريفية ، وسيطرة فئات وشرائح اجتماعية جديدة على مقدرات الريف ..

الخ . وكلها ظواهر سلبية تمسك الواحدة برقبة الاخرى ، وتتطلب مواجهة مخلصة ومثابرة اذا كانت هناك جدية نحو تنمية الريف المصرى .

وتشتمل هذه الدراسة على مبحثين رئيسيين ، يحاول المبحث الأول اعطاء خلفية مختصرة عن أهم الملابسات التاريخية والاجتماعية التى تكاتفت ضد تطوير الريف وتقدمه ، وعملت على تكريس تخلفه واستغلاله ، ثم الانتقال الى مرحلة جديدة بعد ثورة ١٩٥٢ ومحاولات تغيير الوضع المتردى للريف المصرى ، وبعد ذلك أشارة الى موقف الدراسات والبحوث الاجتماعية من الريف . ويتناول المبحث الثانى بالتحليل الوضع الراهن للتنمية الريفية فى مصر ويتصدى لمناقشة أبرز السلبيات التى ناهضت مشروعاتها وبرامجها خلال الفترة السابقة ، وما تمخض عنها من نتائج ومشكلات . وفى النهاية نضع بعض المؤشرات لاستراتيجية مستقبلية للتنمية الريفية فى مصر .

أما عن المنهج فقد حاولنا استخدام منهجا متعدد المداخل interdisciplinary يأخذ فى الحسبان ذلك التداخل والترابط العضوى بين مختلف الظواهر والمتغيرات ، ولعل ذلك يتلاءم مع قضية متشعبة وعلى جانب كبير من الأهمية كقضية التنمية الريفية ، وقد دعمنا تحليلنا بالاحصاءات المتاحة كلما أمكنا ذلك سعيا وراء تحقيق الدقة والموضوعية اللذين يفرضهما دائما الأسلوب العلمى فى البحث . ويجب أن اعترف أن الحيز المحدود لهذه الدراسة قد دفعنى للايجاز الشديد فى مواضع مختلفة . ومن ثم فاننى آمل أن تكون هذه الدراسة فاتحة لدراسة أشمل فى المستقبل القريب باذن الله .